الفصل السادس

الخاتمة

بدأ كتابي بمحاولة فهم سبب رد الفعل السيئ لمجتمع ليبرالي علماني، يفترض فيه الحياد فيما يخص سعي الأفراد نحو الخير، على اعتناقي الإسلام وارتدائي الحجاب. وأخذني بحثي في رحلة إلى عصور الاستعمار، عندما واجه الأوروبيون الحجاب لأول مرة، حتى الأزمنة المعاصرة، حيث عادت المسلمات إلى ارتداء الحجاب بعد أن كنّ قد هجرنه. وقد قدمت بعض أصوات المسلمات المحجبات المقيمات في تورونتو، وحللت صوتاً نسائياً صريحاً في معارضة الحجاب، وأخيراً، حاولت صياغة نظرية إيجابية عن الحجاب للثقافات الرأسمالية في القرن الواحد والعشرين.

الحجاب فلسفة عن لباس الذكور والإناث، وأدب يحكم علاقات الذكور والإناث، ولكن قطعة القماش التي تغطي جسد المرأة بدرجات مختلفة، والمعروفة بالحجاب، هي التي تستقطب العداوة في الغرب، وهي موضع صراع مرير في العالم الإسلامي. فالقوانين التي تحظر الحجاب في تركيا وتونس صدرت باسم «الحداثة»، وهي حداثة ترى الإسلام متخلفاً ومعادياً للحضارة وهمجياً وقاهراً للنساء. وهنا تلتقي الرؤية الغربية للحجاب بوصفه قهراً للمرأة ومحاولات العالم الإسلامي إلغاء الحجاب.

أما الحداثة التي يلجأ إليها العالم الإسلامي العلماني ويستقي منها الأحكام على الحجاب والإسلام؛ فهي رؤية للحداثة غربية المنشأ. وهي من آثار الرؤية الاستشراقية للإسلام. ويعتبر الاستشراق الإسلام والمسلمين «آخر سياسياً»، آخر تعفن في التخلف، وأثبت أنه عاجز عن التقدم والتناغم مع مفاهيم «حديثة» مثل الحرية والمساواة والديمقراطية. ويسيطر الاستشراق على نخبٍ كثيرة، ومثقفين في قريتنا الكوكبية، مسلمين وغير مسلمين. كما يسيطر على الثقافة الشعبية عامة، إسلامية وغير إسلامية.

ففي خضم الجدل حول طرد طالبتين مسلمتين من مدرسة ثانوية فرنسية، لأنهما رفضتا خلع غطاء رأسيهما، نظر قسم كبير من اليسار الفرنسي إلى الحجاب من زاوية استشراقية: «فتمت معادلة البنى الثقافية الإسلامية بالقهر الديني، مع تعريف الممارسات الاجتماعية الغربية بأنها المعيار التحرري العلماني»[1]. فتصور المثقفة والأستاذة الجامعية النسوية بادينتر الحجاب بأنه من أفعال التبعية «ولا يمكن أن يكون من أفعال الاستقلالية السياسية بحال»[2]، فتقول:

الشابات كريمات متسامحات ولا يحببن الإقصاء، فمن يعترض على هذا؟ ولكني أعتقد أنه إذا شرح لهن أحد لماذا ليس الحجاب مجرد قطعة ملابس، سيفهمن الأمر بسرعة. فالحجاب رمز لقهر أحد الجنسين؛ أما ارتداء الجينز الممزق، وصباغة الشعر بالأصفر أو الأخضر أو الأزرق، فمن ممارسات الحرية فيما يخص الأعراف الاجتماعية. وأما وضع الحجاب على الرأس فمن سلوكيات الخضوع، وهو يثقل حياة المرأة بأكملها؛ إذ يختار آباؤهن وأخوتهن لهن أزواجهن، وهن محبوسات في بيوتهن مكبلات بمهامهن المنزلية ونحوها. عندما أقول ذلك للشابات من حولي، فإنهن يغيرن رأيهن على الفور[3].

وتتساءل نورما كلير مورتزي: «ومن لا تفعل؟»، وهكذا تردد بادينتر كل الصور النمطية عن الحجاب بحذافيرها.

وهكذا نجد أن نظرية الاختيار والحياد الليبرالية العلمانية لا يمكنها التعايش الهادئ مع الحملات الاستشراقية على الإسلام؛ فهناك الليبراليون الذي يسعون لضمان التزام العلمانية بحرية كل مواطن في تحديد محتوى حياته، فإذا تضمن ذلك اختيار الحجاب، فسيسعون لمساعدة المسلمات في هذا المسعى. ولكن اختيار الفرد، كما تبين مقولة بادينتر، هو مبدأ يتعايش مع فكرة كون الأساليب الغربية هي الأسمى، وضرورة فرض هذه الأساليب الغربية أحياناً «لصالح المهاجر المسكين» (أو لصالح مواطنينا المتخلفين») أو المواطنين الجهلة.

الحجاب قهر، هذه فكرة ثابتة في «الغرب» و«الشرق». وهي حقيقة مسيطرة تلغي تنوع خبرات النساء مع الحجاب، كما يبين الفصلان الثاني والثالث. أما من الناحية

التاريخية، فقد اتخذ النساء المسلمات مواقف مختلفة فيما يخص الحجاب؛ فهناك مثلاً آسيا جبار، وهي كاتبة جزائرية شهيرة، نشأت في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، قبيل الاستقلال، وهي تنظر إلى الحجاب على نحو يشبه نظرة المرنيسي، فالحجاب في رأيها يمثل «ضرورة طمس أجساد النساء»[4]. وهي ، مثل المرنيسي، تعد نفسها نجت بمعجزة من قدر محتوم مفروض على غيرها من نساء ثقافتها (الأمية والعزلة والحجاب) تقول:

يمشي أبي في شارع القرية بقامته الطويلة الممشوقة وطربوشه، يمسك يدي ويجرني خلفه، وأنا من كنت أفخر كثيراً بنفسي ـ إذ كنت أول طفلة تجلب لها دمى من فرنسا، والبنت التي أفلتت للأبد من العزلة، فلم أضطر مطلقاً لأن أضرب بقدمي وأصرخ رفضاً لفرض الحجاب السادل، أو أرضخ بوداعة، مثل أيٍ من بنات العمومة. أنا من تعمدت التسربل بالحجاب في حفل زواج صيفي، وكأنني أرتدي لباساً تنكرياً، أراه لطيفاً للغاية ـ أنا أمشي في الشارع أمسك بيد أبي. وفجأة تساورني وخزات الضمير: أليس من «واجبي» أن أبقى مع قريناتي في الحريم؟ فيما بعد وأنا في مرحلة المراهقة، نشوانة بإحساس أشعة الشمس على جلدي، وعلى جسدي المتحرك، تقفز الشكوك إلى عقلي: لماذا أنا؟ لماذا أنا وحدي، دون أفراد قبيلتي، أمتلك هذه الفرصة؟[5]

وفي تركيا، تذكر نايلة ميناي رد الفعل على رمي أغطية رأس جدتها. كانت ميناي في الثامنة وقد علمت للتو أن هدى شعراوي ألقت بغطاء وجهها في النيل (1923) تقول:

نشأت أرى هذه العادة أمراً طبيعياً للعجائز، ولكني الآن رغبت بشدة في أن أحررها من الشادور الذي كان بلا شك مزعجاً في الطقس الحار. وفي ظهيرة أحد أيام الربيع، جمعت وأختي الأصغر كل أغطية الرأس والوجه الخاصة بجدتي في سلة وتوجهنا إلى البوسفور القريب منا [وألقينا بها فيه]. بحثت جدتي في هذا اليوم عن طرحتها الأسبانية المفضلة لترتديها مع ثوبها الموشّى؛ فلما أخبرناها عن مآلها استشاطت غضباً. بعض النساء لا يردن أن يتحررن[6].

رحب شابات الطبقتين المتوسطة والعليا بقرار حظر الحجاب في إيران عام 1936، فقد كن منخرطات في حركة تحرير النساء منذ العشرينيات[7]. أما الإيرانيات الأكبر

سناً فلم يرحبن بالحظر. بل إن بعض النساء لم يغادرن بيوتهن طوال سنوات الحظر السبع[8]. تروي هوما هودفار ذكرى جدتها المريرة عن اليوم الذي خرجت فيه بطرحة تغطي شعرها ـ كحل وسط بديل عن ارتداء الشادور: «ركضت والشرطي يأمرها بالتوقف فتبعها وعندما اقتربت من باب بيتها نزع الرجل طرحتها عنها. وكانت قد تصورت أن الشرطي تعمد، تأدباً، تركها تصل إلى بيتها [ولكنه كان ينفذ الأوامر الرسمية بنزع أغطية الرأس عن النساء بالقوة في الشارع]...[9].

تشعر بعض النساء بألم خبرة نزع الحجاب بالإكراه، بقدر ما قد تشعر أخريات بألم الإكراه على ارتدائه. نشأت فارمايان، وهي مؤسسة العمل الاجتماعي الحديث في إيران، في حريم أبيها الارستقراطي، وهي تصف رد فعل أمها، على حظر رضا شاه ارتداء الحجاب:

[كان حظر الشاه الحجاب] شيئاً لا يمكن «لخانوم» [أمي] أن تسامحه عليه ولا ملايين الإيرانيات التقيات الأخريات... [عندما] جرّم... الشاه الحجاب بحدته المعتادة، أعلن أن شيوخ عائلات المجتمع القديم، سيعرضون أنفسهم لسخطه، إذا لم يسمحوا بخروج زوجاتهم في العلن بلباس غربي.

وعندما علمت والدتي أنها ستخسر عفة حجابها العريق، طاش صوابها، واعتبرت هي وكل المتمسكين بالتقاليد أمر رضا شر ما فعله حتى اللحظة، أكثر شراً من هجومه على حقوق رجال الدين، وأكثر شراً مما قام به من مصادرات وسفك دماء. ولكن شازده [أبي]، أدرك أنه لا يجرؤ على العصيان.

وأنا على يقين بأن القرار لم يكن سهلاً عليه. فالفارسي الارستقراطي الذي يسمح بتحديق الغرباء في زوجاته علناً، يتعرض لمعرة كبرى. ولكن أبي قرر أن يلتزم بالأوامر حرصاً على سلامة عائلته، وكان على زوجاته أن يكنّ أول من يظهر من الأرستقراطية القديمة رسمياً بلباس غربي. فأرسل في طلب قبعات من «لالزار أفينيو» لكل زوجاته، وقال لهن إنهن سيرتدين القبعات ويخرجن معه في اليوم التالي في عربته المفتوحة أمام الناس. كان الأمر بالنسبة لأمي كمن أُمرت أن تستعرض نفسها عارية في الشارع. وما كانت لترضخ لهذه المهانة لولا احترامها لحكمته وحرصها على سلامته.

وفي اليوم التالي، كانت تبكي حنقاً ومهانة، فاعتزلت هي وبتول «خانوم» [ضرتها] في حجرة نومها لترتدي القبعة. وكانت تقول من بين دموعها «في أول الأمر يهاجم رضا شاه رجال الدين، والآن يفعل هذا. إنه يسعى لهدم الدين، إنه لا يخشى الله، هذا الشاه الشرير لعنه الله لهذه الفعلة!» وكانت وهي تبكي تحاول بلا طائل، أن تخفي خصلات شعرها الأسود الغزير الذي يصل إلى خصرها طولاً، تحت الحماية الضعيفة لقبعة فرنسية صغيرة جَرَسيّة الشكل. ولم يكن بيد زوجة أبي أن تفعل شيئاً يواسيها[10].

«بعض النساء لا يردن أن يتحررن». إن من يشارك منا في معركة الحجاب... وكونه قهراً أم لا ـ يعرف أن التكاليف النفسية يمكن أن تكون فادحة. تقول نايلة ميناي:

أجيال من الفتيات... نشأن بعقلية «إما أو»*، مقتنعات بأن في التغريب حرية وفي التمسك بالتقاليد وبالإسلام استسلاماً للعبودية. وقد بلغ الأمر ببعض أهل شمال إفريقيا إلى حد اعتناق رطانة أسيادهم الاستعماريين السابقين في وصف هذا الاتجاه باستعمال كلمة«متطور» للإشارة إلى كل ما هو فرنسي دون تمييز، وكأن تقاليدهم حالة بدائية لابد أن ينهضوا بأنفسهم منها[11].

هذا الصراع يستثيره كثيرٌ من الأسر التي تعترض على تحجب نسائها؛ فالحجاب سيجعل مظهرهن غبياً، وسيعجزن عن أن يكون لهن مستقبل مهني، ولن يتزوجن أو يستمتعن بحياتهن. فهل يتصور القارئ شعور المرء بدونية تراثه وشعبه؟ وأن السبيل الوحيد للرقي هو في الخارج (أن تهجر تراثك)؟ يقول إدوارد سعيد: «إن مجرد إعلان الهوية الإسلامية من قبل أي مسلم تقريباً يكاد يكون تحدياً كونياً، وضرورة من ضرورات البقاء» [12]**. ولكن البعض يحافظ على بقائه بإخفاء هويته الدينية.

لم تنجح النماذج المعرفية النسوية إلى الآن في فهم الخبرة الإيجابية التي يجدها المحجبات في ارتداء الحجاب، ولم تنجح في رؤية التنوع في خبرة التحجب المنتشرة

---

* عقلية الاختيار الواحد: إما كذا أو كذا. (المترجم)

** يقصد سعيد أن المسلم مضطر لأن يؤكد هويته الإسلامية لأن هذا من ضرورات البقاء. ولو أن ذلك الفعل البسيط يعد تحدياً كونياً، بافتراض أن هذه الهوية تعد غريبة وغير مفهومة أو غير مقبولة في السياق الكوني الذي يتسيده الغرب. (المترجم)

في العالم كله. وكما ذكرت في المقدمة، يشهد هذا الأمر تغيراً، ولكن النموذج المعرفي السائد (أن الحجاب قهر) يحكم ويتغلغل حتى في كثير من الدراسات الموجهة لإبراز أصوات المحجبات. فقد حضرت لواحدة من الباحثات الغربيات البارزات في شؤون الشرق الأوسط حديثاً عن أنواع التيارات النسوية الموجودة في مصر. قالت إنها تابعت المناظرات والاختلافات والتنوع الموجود بين المسلمات»، وعند نقطة معينة وقت طرح الأسئلة، علّقت قائلة: «أردت أن أرتدي غطاء رأس وأنا في مصر، ولكنك إذا كنت متزوجة من مسلم، وارتديت الحجاب لن تستطيعي أن تخلعيه أبداً». وهز الحضور الرؤوس تعاطفاً. وهالني ذلك. فماذا عن صديقاتي اللاتي يمنعهن أزواجهن المسلمون من ارتداء الحجاب؟ وماذا عن صديقاتي اللاتي هجرهن رفقاؤهن المسلمون سخطاً عند اعتناقهن الإسلام؟ وماذا عن حقيقة أن هذه الباحثة إذا كانت غير مسلمة فليس لزوجها مجرد توقع تحجبها؛ لأن الشرائع الإسلامية لا تطبق على غير المسلمين؟ ولكن هذا التعليق وقبول الجمهور له يقول الكثير عن قدر سيطرة الرؤية الاستشراقية (في ثوب نسوي) على عقول الناس. (لو كان تعليقها صادقاً في حالتها، فلماذا لم تقل «ما كان زوجي ليسمح لي بخلعه»، بدلاً من الكلمة المرسلة الرجل «المسلم»؟)

الحجاب قهر؛ فهو يسد عليهن كل منفذ، ويكبت حياتهن، ويحولهن إلى أشياء. وحقيقة الأمر أن الخطاب الاستشراقي/ النسوي هو الذي يمحو ملامح المسلمات. فالنسوية، مسلمة أو غير مسلمة، المعادية للإسلام، تحول المحجبات إلى دمى صامتة عاجزة عن التعبير عن نفسها، ويحتجن إلى الغرباء في تأويل معنى تراثهن. ومن الخبرات شديدة الغرابة أن تقرأ الواحدة منا لبعض النسويات ما يكتبنه عن ثقافتهن، لاسيما بعد أن تكون إحداهن قد غمست نفسها في حقل «النساء والإسلام». فهذا الحقل برمته (وهو حقل معرفي غربي)، برغم عمقه ووعيه وبرغم حضور الباحث الوطني فيه، لا يزال ينشر الانطباع بأن المسلمات هن الجماعة الوحيدة الباقية في العالم التي تعاني القهر، أو أنهن أكثر النساء قهراً في العالم. وتتجنب الباحثة النسوية الغربية أي إشارة إلى نفسها أو إلى ثقافتها (فلا تعقد مقارنات لأوجه التشابه إذ تقصر اهتمامها على الاختلاف)؛ وبذلك تعطي الكاتبات الغربيات الانطباع بأنهن

يعشن في مجتمع لا يعرف قهر النساء. ولكن العودة إلى الأعمال النسوية التي تتناول الغرب تحكي قصة مختلفة تمام الاختلاف: فالرسالة هي تواصل قهر المرأة، وكأن ثقافتهن لا يزال أمامها طريق طويل. إن الانتقال من أحد فروع الكتابة إلى آخر في الميدان نفسه يمثل صدمة خِبرية.

«هل نخلط بين هذا التسربل ونفي جوهر النساء وبين العبادة (كاثرين جوفيير)؟» مثل هذه الجملة، وسنوات من البحث، بددت عندي أي شك كان لدي في البداية في قدرتي على تفنيد الصورة النمطية الغربية عن الحجاب. وهناك بالفعل كتب كثيرة تشير إلى مدى سذاجة الصورة النمطية، وهناك باحثون وباحثات كثر يبحثون عن رؤية أكثر دقة وعمقاً؛ فلماذا لم تصل رؤاهم إلى عامة الناس؟ ولماذا ظلت الرؤية الساذجة حية؟ الحق أنني لا أدري. مع ذلك فأنا أشك في أن لذلك ارتباطاً بمزيج معقد يدخل فيه استمرار وجود الاستشراق، ولو على مستوى اللاوعي، مع أثر خبرة القراءة في حقل النساء والإسلام التي أشرت إليها منذ قليل. وبرغم وجود باحثين وباحثات يعملون على تقويض الصور النمطية الغربية الشائعة؛ فإن هناك قوة مضادة وقودها إيمان بتفوق الغرب وأساليبه. ويرجع الأمر إلى عجزهم عن إدراك أن لدينا جميعاً هوياتنا ورؤانا الكونية التي تشكلها خطابات متنوعة نتعرض لها أثناء نشأتنا، ونعيش بها ونحن كبار، كما يغذيها وهمٌ بأن البحث في العلوم الاجتماعية له منظور موضوعي ، يمكن أن ندرس منه الآخرين، ووهمٌ بإمكانية النظر إلى مجتمع ما، ثم الحكم بأن «تلك العادة تنطوي على قهر». وترتبط تلك القناعة بعجز الأغلبية الساحقة من أصحاب التوجه الليبرالي عن إدراك نسبية موقعهم في ثقافتهم وفي ثقافة الآخرين، كما ترتبط بحقيقة اعتماد كثير من المثقفين الغربيين على الإعلام في استقاء معلوماتهم عن العالم، شأنهم في ذلك شأن العامة. فإذا لم يكن هذا المثقف قد قابل مسلماً واحداً طوال حياته، أو لم يدرس الإسلام قط، أو درسه من خلال الأعمال الاستشراقية النسوية، فإنه يكون أقرب لاعتناق الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين مثله مثل غيره من الناس. وكما يوضح إدوارد سعيد لا يسعى الكتاب أو الباحثون إلى السمو بأنفسهم عن شائع الأفكار، أو الحكمة القديمة؛ بل إنهم يعززون تلك «الحكمة» ويمنحونها الاستقرار.

وباستثناء مقالة إيجابية يتيمة قد تنشر، فإن الصورة العامة للإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي صورة قاتمة: المسلمون همجيون يفجرون الأبرياء، ويقتلون بلا سبب ويقهرون النساء. وقد أجري مسح في عام 1980 في الولايات المتحدة (ولكنه يمكن أن يمثل أي دولة غربية) وكانت نتائجه كالآتي:

تميل نسبة كبيرة من العينة إلى إمكانية وصف المسلمين «بالهمج، القساة» (44%)، «غدارين، مخادعين» (49%)، «يسيئون للنساء» (51%)، «محبون للحرب ومتعطشون للدماء» (50%). وعندما سئلوا عن عدد العرب الذين تنطبق عليهم قائمة الأوصاف الطويلة، قالت نسبة كبيرة من العينة إن «أغلبهم» أو «كلهم»: «معادون للمسيحية» (40%)، «معادون للسامية» (40%)، «يريدون تدمير إسرائيل وإلقاء الإسرائيليين في البحر» (44%). وتنطوي هذه الصفات كلها على العداوة، وإذا ضم بعضها إلى بعض فهي عداوة للمسيحية والسامية. ولأن أغلب الأمريكيين يعدون بلادهم أمة مسيحية، فهذا الاتجاه يعد أيضاً معادياً للأمريكيين[13].

برغم أن هذا المسح أجري في العام 1980، فثمة أحداث في التسعينيات، مثل الافتراض الفوري لمسؤولية المسلمين عن تدمير المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي، في العام 1995، تبين أن مسح سليد لا يزال يعكس الرأي الغربي السائد.

كلك لا يمكن إغفال دور النفوذ السياسي في استمرار الصورة النمطية «الحجاب قهر»؛ إذ يرتبط الخطاب المعادي للحجاب بمشروع الهيمنة الغربية من أوجه عديدة، حتى مع افتراض أن هذه الهيمنة أمر طبيعي، وليس نتيجة لهذه السياسة الخارجية أو تلك. فردود أفعال بادينتر على الحجاب، والتي تمثل ردود أفعال غربية كثيرة، فكرية أو غير فكرية، تعكس خوفاً من الأصولية الإسلامية، ذلك الشبح الذي يطارد الغربيين مثلما كانت الشيوعية تطارده في الخمسينيات. وكما يقول إدوارد سعيد: مثلما كان الخوف الاستشراقي في العصر الاستعماري، ثمة خوف من تحطيم الحواجز التي تمنع الإسلام من الانتشار. ولا عجب أن يصوَّر انتشار الحجاب في قلب الغرب بالنمو السرطاني الذي ينبغي استئصاله.

مع ذلك، فهناك من سيعترض، وسيكون محقاً في ذلك. فالنساء في مجتمعات إسلامية كثيرة تعرضن للعزلة، ولا يزلن، وقد أكرهن في الماضي على الحجاب، ولا يزلن. وكان الحجاب دائماً جزءاً من سلة عادات تقيد إمكانات المرأة وتحدد أدوارها سلفاً، بطرق قاسية، أو شديدة القسوة. كان الحجاب جزءاً من نظام يحرم المرأة من التعليم والعمل خارج البيت ويحرمها من التصويت. فلا عجب أن تحمل مسلمات كثيرات مثل المرنيسي على الحجاب ويحتفين باختفائه. ولم تمض سوى أربعين سنة على تفكيك هذا النظام وعلى خروج المرأة من البيت وحصولها على التعليم والعمل، ولا عجب أيضاً أن يسبب ظهور الحجاب مرة أخرى توتراً لدى المسلمين والمعلقين ذوي التوجه العلماني؛ فكثيرات ممن اجتذبهن الحجاب الجديد لم يعشن في ظل النظام الذي حارب أسلافهن لتفكيكه. وليس لديهن سوى أفكار مجردة عن شكل الدولة الإسلامية.

إن حركة التحجب الجديدة تحدٍ شامل لكلٍ من الصورة النمطية الغربية عن القهر لبعض الممارسات الإسلامية (العربية) التقليدية. وتتضمن حركات العودة إلى الاحتكام إلى الكتاب والسنة (ولها صور مختلفة) قوىً كثيرة. فهناك من هم مثلي يعتقدون أن في القرآن والسنة والرسول ومجتمع صدر الإسلام تتجسد المساواة والعدل للرجال والنساء جميعاً، ولكن أسلوب الحياة هذا تعرض للتشويه بسبب التراكمات الثقافية لأربعة عشر قرناً. يقول هؤلاء المسلمون والمسلمات (بضرورة) فصل الحجاب عن تقاليد الماضي الظالمة مثل العزلة وتلك الممارسات الظالمة التي حرمت النساء دون وجه حق من حقهن في المشاركة في شؤون المجتمع، ولذلك يطالبن بالتعليم والعمل والمشاركة السياسية وبالحجاب. ليست السنوات الأربعون بالمدة الطويلة، ولكن هناك قوى في حركة العودة إلى الإسلام «الخالص» تتبنى تأويلات ضيقة للقرآن والسنة. فإذا تولى هؤلاء القياد فستعود السلة القديمة إلى فرض نفسها. وهناك مخاطر حقيقية على النساء، لكن الباحثين ووسائل الإعلام تتجه إلى الاهتمام بالأخطار فقط، وبما هو سلبي، دون النظر إلى السياق الكامل ودون تقديم القصة كاملة. أما قصة الأخطار المحدقة بالنساء فتمحو ما عداها من قصص ومواقف؛ بل وتصوَّر

كأنها «الإسلام الحقيقي». بيد أن هذه الألوان من القوى السلبية تشبه الأخطار الموجودة في الغرب تماماً. إذ تتحدث النسويات عن «ردة»، وإذ لا تزال النساء يكافحن للحصول على أجور مساوية للرجال، ولتعديل قوانين الاغتصاب ووضع حدٍ للعنف المنزلي والاعتداء على الأطفال، وما إلى ذلك.

كان كتابي محاولة لتقديم قصة أخرى عن الحجاب: قصة نساء مثلي يجدن السكينة والسعادة في الإسلام، نساء لا يعتقدن أن الإسلام يقهر النساء، أو أن الحجاب يكبتهن. ومن الطبيعي أن أعتقد بان قصتي الإيجابية هي «الإسلام الصحيح» وهي التي ينبغي أن تقدم على ما سواها من تأويلات. وكتابي هذا محاولة لفتح خطوط اتصال مع من يريدون أن يسمعوا. وهو طلب بأن تعامل المسلمات اللاتي يسعدهن ارتداء الحجاب باحترام، وأن يُستمع إليهن بأدب، ويُختلف معهن ولكن بنية طيبة. قد نتفق على الاختلاف بشأن قضايا معينة، ولكننا، في الحد الأدنى، ينبغي أن نكون قادرين على الاختلاف ومع ذلك نظل شركاء في هذه القرية الكوكبية.

هوامش الفصل السادس وتعليقاته

(1) Norma Claire Moruzzi, <A problem with Headscarves: Contemporary Complexities of Political and Social identity>, Political Theory, 22, 4 (November 1994), p.661.

(2) Ibid.

(3) Ibid., pp.661662-.

(4) Assia Djebar, Fantasia, An Algerian Cavalcade, trans. Dorothy S. Blair (Portsmouth, NH: Heinemann, 1993), p.180.

(5) Ibid., p.213.

(6) Minai, Women in Islam, pp.8990-.

(7) Yeganeh, «Women«s Struggles in the Islamic Republic of Iran», p.30; Azari, «Islam«s Appeal to Women», p.45.

(8) Givechian, «Cultural Changes in Male-Female Relations», p.526.

(9) Homa Hoodfar, «The Veils in Their Minds and On Our Heads: The Persistence of Colonial Images of Muslim Women», Resources for Feminist Research, 22, 3 - 4 (1993), p.10.

(10) Sattareh Farman Farmaian, Daughter of Persia: A Woman«s Journey from her Father's Harem through the Islamic Revolution (New York: Crown Publishers, 1992), pp.95 - 96.

(11) Minai, Women in Islam, p.240.

(12) Said, Covering Islam, p.72.

(13) برغم أن أغلب المسلمين ليسوا عرباً ، وأن كثيراً من العرب ليسوا مسلمين، يتصور كثير من الغربيين أن «عربي» و«مسلم» مترادفان. أشارت النسبة الإجمالية من العينة في هذا المسح إلى أن «أغلب» أو «كل» العرب مسلمون، فمن المقبول هنا أن نعد هذه الإحصاءات مؤشراً على صورة المسلمين في الغرب.

ملحق (1)

من أجريت معهن المقابلات الشخصية

باسمة

في أوائل الثلاثينيات من عمرها، أوروبية قوقازية، اعتنقت الإسلام في الثمانينيات، وتزوجت بعد ذلك من مسلم، وهي ربة منزل وكاتبة حرة.

إليزابيث

عزباء في منتصف العشرينيات من عمرها، كندية قوقازية، اعتنقت الإسلام في التسعينيات، وهي مهنية متخصصة.

إيلين

كندية سوداء، في أواخر الثلاثينيات من عمرها، متزوجة من مسلم، اعتنقت الإسلام في السبعينيات، تعمل في مجال الصناعة.

فاطمة

في منتصف الأربعينيات من عمرها، هاجرت إلى كندا من وسط آسيا مع زوجها، ربة منزل ومعلمة.

حليمة

كندية قوقازية، في أواخر العشرينيات من عمرها، متزوجة من مسلم وبعد ذلك اعتنقت الإسلام في التسعينيات، ربة منزل.

إيمان

عزباء، في أوائل العشرينيات من عمرها، وهي ابنة فاطمة، طالبة.

خديجة

في منتصف الأربعينيات من عمرها، هاجرت إلى كندا من الشرق الأوسط مع زوجها، وهي مهنية متخصصة.

نادية

عزباء، في أواخر العشرينيات من عمرها، من جزر الكاريبي، وهي مهنية متخصصة

نهى

عزباء، في منتصف العشرينيات من عمرها، آسيوية إفريقية، طالبة.

نور

عزباء، في منتصف العشرينيات من عمرها، من جنوب آسيا، طالبة.

رانيا

متزوجة، في أواخر العشرينيات من عمرها، ابنة فاطمة، مهنية متخصصة.

رنيم

في أوائل الثلاثينيات من عمرها، كندية قوقازية، اعتنقت الإسلام في الثمانينيات، ثم تزوجت من مسلم، مهنية متخصصة.

ساديا

مراهقة، ابنة ياسمين، طالبة.

صفية

في منتصف العشرينيات من عمرها، هاجرت إلى كندا من شمال إفريقيا مع زوجها، ربة منزل.

ياسمين

في أواخر الثلاثينيات من عمرها، هاجرت إلى كندا من الشرق الأوسط مع زوجها، ربة منزل.

زينب

في أوائل الستينيات من عمرها، أرملة، أوروبية، اعتنقت الإسلام في التسعينيات، مهنية متخصصة، متقاعدة.

ملحق (2)

الآيات القرآنية والأحاديث الخاصة بالحجاب التي رجعت إليها من أجريت معهن المقابلات الشخصية

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(النور:31)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

(الأحزاب:59)

«عن عائشة، رضى الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر، دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا. وأشار إلى وجهه وكفيه».

ملحق (3)

كيف تريد من أجريت معهن المقابلات الشخصية أن يراهن الآخرون؟

باسمة

«أحب أن يروني إنسانة ذكية، وليس فرداً في أقلية منسحقة. أريدهم أن يروا الحجاب شيئاً محترماً وليس به إهانة ولا قهر».

إليزابيث

«في الواقع لا يهمني ما يعتقدون [...] أتمنى فقط ألا يكون لديهم أفكار.. كراهية.. نحوي».

إيلين

«مجرد إنسان عادي مثلهم. شخص يستحق الاحترام والمعاملة الآدمية».

حليمة

«لا أدري، وفي الحقيقة لم أفكر في هذا الأمر من قبل. أريدهم أن يحترموا اختياري، وألا [...] يستبعدوا المحجبات من أشياء معينة [كما] في كوبيك [...] فقد رفضوا وجود واحدة في المحكمة، ورفضوا وجود الأخرى في المدرسة. أقصد أن هذا هو القهر الحقيقي، يقولون إن النساء مقهورات بسبب ارتدائهن الحجاب، ولكن القهر الحقيقي هو أن تمنع فتاة من الذهاب إلى المدرسة لأنها تغطي رأسها «بطرحة». فالقضية الأكبر هي أننا نريد أن يعرف الجميع الإسلام، حتى يزيد عدد من يقبلونه».

إيمان

«أريدهم أن يعرفوا أنني مسلمة، وأنني أؤمن بالإله الواحد، وأن هذا هو الزي الذي أمرني الله أن أرتديه. ونحن نعظّم ربنا على نحو يجعلنا نطيع أوامره في ذلك؛

برغم الكثير من الضغوط الاجتماعية ... وكم أتمنى ألا توجد أي مشاعر عدائية. أما إذا كانوا غير مكترثين فهذا أمر مقبول ولا يزعجني».

خديجة

«أريدهم أن يروا ما أرى، [أن الحجاب يرمز إلى التصميم والقوة والشجاعة والإخلاص لدين الإسلام] وأن يحترموهن [أي المحجبات] كما يحترمون الراهبات».

نادية

«أريد أن يحكم الناس عليّ من شخصيتي، وألا يشغلهم مظهري».

نور

«أن يروني شخصاً لطيفاً [وليس] شخصاً عدوانياً...مجرد إنسان يمارس دينه».

رنيم

«أن يقبلوني كما أنا، أي ينبغي أن يقبلوني كما أنا وليس كما أبدو، وينطبق هذا على الجميع».

رانيا

«لا أريدهم أن يهتموا...بكوني أرتدي حجاباً، وما أتمنى أن يراه الناس فيّ، وما أريده لنفسي هو أن أكون إنساناً صالحاً عادلاً ودوداً».

ساديا

«أني مسلمة، لهذا أريدهم يعلموا ذلك، وأنا أفعل ذلك طاعة لله، وهذا بلد حر أفعل فيه ما أشاء، ولا يهمني إن كانوا لا يقبلونني أم لا؛ فسأرتديه على أي حال».

صفية

«هذا قراري وأريدهم أن يحترموا قراري».

ياسمين

«أريدهم أن يفهموا الإسلام على نحو أفضل، لأنهم...إذا نظروا إليّ [كأني] إرهابية أو ...امرأة يرغمها زوجها على فعل ذلك أو [مقهورة]. أريدهم أن يتعلموا

المزيد عن الإسلام من القرآن، وليس مما يقوله الناس عن الإسلام...وحتى أفعال المسلمين لا تمثل الإسلام؛ لأنهم للأسف يسيئون التصرف في أوجه عديدة بل يسيئون للإسلام [وساعتها] سيحبون أن يفعلوا كما أفعل وسيحبونني، من يدري».

زينب

«أريدهم أن يعرفوا أن هؤلاء مسلمات مؤمنات، ولكني أعلم أنهم لن يفعلوا ذلك».

الملحق (4)

أسئلة المقابلة الشخصية

ـ1ـ

(الجميع)

1. ما العمل الذي يستغرق أغلب وقتك وطاقتك: وظيفتك ـ مهام الأمومة ـ أنشطة خيرية عامة أو خاصة ـ دراسة؟
2. ما الدور الذي يمنحك أقصى شعور بالرضا؟
3. ما ردود الأفعال التي وجدتيها من أسرتك ـ صديقاتك ـ زميلاتك ـ بشأن قرارك بالعمل ـ الدراسة ـ البقاء في البيت؟
4. هل تعدين نفسك «مسلمة كندية» أو «البلد*ـ كندية»، أو شيء غير هذا؟
5. هل تعدين نفسك متدينة؟ لماذا؟
6. هل تعدين من تعيشين معهم متدينين؟
7. ما تعريفك «للمسلم أو المسلمة».
8. ما نوع ارتباطك بالجالية الإسلامية في تورونتو؟

ـ2ـ

(المحجبات)

9. هل ترتدين الحجاب طوال الوقت؟ لماذا؟ لَم لا؟
10. كم كان عمرك عندما قررت ارتداء الحجاب؟

---

* أي البلد الأصلي كأن تقول: مصرية كندية (المترجم).

11. ما العوامل التي أوصلتك إلى قرار التحجب؟

12. كيف كان رد فعل أسرتك ـ صديقاتك ـ زميلاتك؟

13. هل تلقيت تغذية راجعة إيجابية أو سلبية؟

14. ما صورة رد الفعل الذي تلقيتيه من المجتمع الأوسع ـ مسلمين وغير مسلمين؟

15. هل تشعرين أن المجتمع الكندي يقبل المسلمات غير المحجبات أكثر مما يقبلك؟

16. هل شعرت أو تشعرين بأي ضغط عليك لترتدي الحجاب؟ ممن؟

17. هل شعرت أو تشعرين بأي ضغط عليك حتى لا ترتدي الحجاب؟ ممن؟

18. ما نوع الحجاب الذي ترتدينه؟

19. كيف كنت ترين الحجاب قبل قرارك بارتدائه؟

20. ماذا تعلمت عن الحجاب من أسرتك ـ المدرسة ـ المجتمع؟

21- هل نساء أسرتك محجبات؟ (وإذا كنتِ أماً، ماذا تعلمين أطفالك عن الحجاب؟)

22. بماذا تشعرين وأنت ترتدين الحجاب؟ (يمكنك الاستفاضة)

23. ما مزايا التحجب وما عيوبه؟

24. هل لارتداء الحجاب أي أثر ملحوظ على حياتك اليومية في البيت ـ العمل ـ البيئة الأكبر...إلخ؟

25. هل يعلّق الناس على حجابك؟ ما نوع ما يقولونه من تعليقات؟

26. هل تلقين اهتماماً خاصاً في قطار الأنفاق – الشوارع؟

27. هل تشعرين أنك تعاملين معاملة مختلفة لأنك محجبة؟

28. إلامَ يرمز الحجاب في رأيك؟

29. بماذا تودين أن يفكر الناس حين يرونك بالحجاب؟

30. ماذا يرون في ظنك؟

31. بماذا تشعرين تجاه المحجبات؟ وتجاه المسلمات غير المحجبات؟

32. لماذا تغطي النساء أجسادهن أكثر من الرجال؟

33. يعتقد بعض الناس أن الحجاب أداة الرجال في التحكم في النساء – تحركاتهن وجاذبيتهن الجنسية – ما رأيك في هذا الزعم؟

34. أنت لست مضطرة لارتداء الحجاب في كندا، فهل التحجب هنا يعني أنك أقل حرية من صديقاتك الكنديات؟

35. أذاعت محطة سي بي سي تقريراً عن قضية الحجاب في كويبك، وسألت المذيعة: «هل يجتاز الحجاب اختبار الهوية الكندية؟» ما ردك على هذا السؤال؟

36. تقول فاطمة المرنيسي إن الحجاب يعني عدم خروج النساء من بيوتهن كثيراً. فما رأيك في هذا الزعم؟

ـ 3 ـ

(غير المحجبات)

37. هل تحجبت من قبل؟ متى؟ ولماذا؟

38. [إذا كانت إجابتك عن السؤال (37) بنعم] كم كان عمرك عندما قررت التحجب؟

39. ما العوامل التي أوصلتك لقرار التحجب؟

40. هل تجدين تغذية راجعة إيجابية و/أو سلبية من أسرتك ـ صديقاتك ـ زميلاتك بشأن قرارك بالتحجب في السياق الذي ترتدين أو لا ترتدين فيه الحجاب (طوال الوقت)؟

41. ما شكل رد الفعل الذي تلقيته من المجتمع الأوسع ـ مسلمين وغير مسلمين؟

42. هل تشعرين أن المجتمع الكندي يقبلك أكثر مما يقبل المحجبات؟

43. هل شعرت أو تشعرين بضغوط لارتداء الحجاب؟ ممن؟

44. هل شعرت أو تشعرين بضغوط لعدم ارتداء الحجاب؟ ممن؟

45. إذا قررت التحجب، فما شكل الحجاب الذي سترتدينه؟

46. هل فكرت في ارتداء الحجاب لمدة أطول/طوال الوقت؟ لماذا/لَم لا؟

47. ماذا تعلمت عن الحجاب من أسرتك ـ المدرسة ـ المجتمع؟ (وإذا كنتِ أماً، ماذا تعلمين أطفالك عن الحجاب؟)

48. هل نساء أسرتك محجبات؟

49. ما مزايا الحجاب وعيوبه؟

50. هل تظنين أن لارتداء الحجاب أي أثر ملحوظ على حياتك اليومية في البيت ـ العمل ـ البيئة الأكبر...إلخ؟

51. في ظنك، ما شعور من ترتدي الحجاب (طوال الوقت)؟

52. في ظنك، هل سيعلّق الناس على حجابك؟ وما، في ظنك، نوع ما سيقولونه من تعليقات؟

53. هل تظنين أنك ستتلقين اهتماماً خاصاً في قطار الأنفاق ـ الشوارع؟

54. هل تشعرين أنك ستعاملين معاملة مختلفة لأنك محجبة؟

55. إلامَ يرمز الحجاب في رأيك؟

56. بماذا تودين أن يفكر الناس حين يرونك بالحجاب/ أو حين يرونك بغير الحجاب؟ (ماذا يرون في ظنك؟)

57. كيف ترين العلاقة بين الحجاب وكونك مسلمة؟

58. بماذا تشعرين تجاه المحجبات؟ وتجاه المسلمات غير المحجبات؟

59. لماذا تغطي النساء أجسادهن أكثر من الرجال؟

60. يعتقد بعض الناس أن الحجاب أداة الرجال في التحكم في النساء ـ تحركاتهن وجاذبيتهن الجنسية ـ ما رأيك في هذا الزعم؟

61. أنت لست مضطرة لارتداء الحجاب في كندا، فهل التحجب هنا يعني أنك أقل حرية من صديقاتك الكنديات؟

62. أذاعت محطة سي بي سي تقريراً عن قضية الحجاب في كويبك، وسألت المذيعة: «هل يجتاز الحجاب اختبار الهوية الكندية؟» ما ردك على هذا السؤال؟

63. تقول فاطمة المرنيسي إن الحجاب يعني عدم خروج النساء من بيوتهن كثيراً. فما رأيك في هذا الزعم؟

ـ 4 ـ

(معتنقات الإسلام)

64. لماذا اعتنقت الإسلام؟

65. ما نوع التغيرات التي أحدثها التحول إلى الإسلام على حياتك؟

66. ماذا كان أثر اختيارك أن تكوني مسلمة على علاقتك بأبويك ـ إخوتك وأخواتك ـ صديقاتك ـ زميلاتك؟

67. (للمتزوجات) ماذا كان دور زوجك في اعتناقك للإسلام؟*

---

* يفترض كثير من الناس أن النساء يتحولن للإسلام بسبب أزواجهن أو رفقائهن وهذا صحيح في بعض الحالات (إيلين على سبيل المثال في أول الأمر) ولكن هناك أخريات يتحولن إلى الإسلام وهن متزوجات بكامل إرادتهن وباقتناع كامل (على سبيل المثال إليزابيث وإيلين وفيما بعد حليمة) وهناك أخريات يتحولن إلى الإسلام وهن غير متزوجات (مثل باسمة ورنيم وزينب).

- 5 -

(تم تعديل كافة الأسئلة حسب شخصية المرأة المقابلة شخصياً)

68. ما العلاقة بين الرجال والنساء في الإسلام (هل هي علاقة تساوٍ؟)

69. هل للرجال وللنساء طبيعتان مختلفتان؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فما هما؟

70. ما (ماذا ستكون) مسؤوليات زوجك في البيت، وما (ستكون) مسؤولياتك؟ ماذا تتمنين أن تجدي في زوج المستقبل؟

71. يعتقد بعض الناس أن المسلمين يسببون مشكلات خاصة داخل الديمقراطيات الليبرالية لأن الإسلام والديمقراطية الليبرالية لا يتوافقان (فمثلاً لا يعترف الإسلام بالفصل بين الكنيسة والدولة). ما رأيك في هذا الزعم؟

72. بماذا تشعرين تجاه الطريقة التي يذكر بها المسلمون في وسائل الإعلام في كندا؟

73. بماذا تشعرين نحو الاتجاه الحالي لإقامة حكومة إسلامية في بعض الدول؟ وكيف سيؤثر ذلك على النساء في رأيك؟

74. إذا تصورت مدينة فاضلة أو مجتمعاً تكون فيه كل الأشياء وفق ما تحبين، فماذا سيكون شكل هذا المجتمع؟

75. هل من شيء آخر تحبين أن تضيفيه؟ وهل أغفلت أن أسألك عن شيء تعدينه مهماً؟ هل لديك أسئلة توجهينها لي؟

76. هل ستحضرين للقاء شخصي للمتابعة إذا دعت الضرورة؟